السنةُ الحاديةُ والثمانون بعد المئة

فيها أَمَر هارونُ أن يصدَّرَ في مكاتباته بعد البسملةِ الصلاةُ على النبيِّ ﷺ. وغزا هارونُ بنفسه بلادَ الروم، فنازل حصناً يقال له: الصَّفصاف، ففتحه عَنوة، وقال مروانُ ابن أبي حفصة: [من الرجز]

إنَّ أميرَ المؤمنينَ المصطفى قد ترك الصَّفصافَ قاعاً كالصَّفا(١)

وحجَّ بالناس هارونُ وفي صحبته وزيرُه يحيى بنُ خالد، وقد كان يختل من هارون، وبدت أَمارات تغيُّره عليه، فسأله في الكعبة أن يُعْفيَه من الوزارة وأن يجاورَ بمكَّة، فأَعفاه وأذن له في المجاورة، وردَّ الخاتمَ إلى هارون، وقفل راجعاً إلى العراق، وأقام يحيى بمكَّة.

فصل وفيها توفي

الحسنُ بن قَحْطَبة

ابنِ شَبيب الخُراساني، أخو حُميد، وهما وأبوهما من كبار قوَّاد بني العباس، ومَن اجتهدوا في إِنشاء دولتِهم، وكان لهم عند أبي العباسِ وأخيه قدمُ صدقٍ ومكانةٌ عالية، وولَّوهم الولايات.

وكان الحسن شجاعاً جَوَاداً، وتوفِّي في هذه السنةِ وهو ابنُ أربعٍ وثمانين سنة(٢).

عبدُ الله بن المُبارك

ابنِ واضِح، أبو عبد الرَّحمن، المَرْوَزيُّ، الحَنْظَليّ مولاهم، من أهل مَرو(٣).

ولد سنةَ ثمان عشرة. وقيل: سنة عشرٍ ومئة. وطلب العلم، وروى رواياتٍ كثيرة،

---

(١) في (خ): مثل الصفا، والمثبت من تاريخ الطبري ٨/ ٢٦٨، والمنتظم ٩/ ٥٧، والبداية والنهاية ١٣/ ٦٠٩.

(٢) تاريخ الطبري ٨/ ٢٦٨، وتاريخ بغداد ٨/ ٤١٥، والمنتظم ٩/ ٥٨، وتاريخ الإسلام ٤/ ٨٣٣، والبداية والنهاية ١٣/ ٦٠٩.

(٣) تاريخ بغداد ١١/ ٣٨٨، والمنتظم ٩/ ٥٨، وتهذيب الكمال ١٦/ ٥، والسير ٨/ ٣٧٨، وتاريخ الإسلام ٤/ ٨٨٢، والبداية والنهاية ١٣/ ٦١٠، وفي حواشيها مصادر أخرى.

وصنَّف كتباً كثيرةً في أبواب العلم وصنوفه، حملها عنه قومٌ وكتبها الناسُ عنه. وقال الشِّعرَ في الزهد والحثِّ على الجهاد. وقدم العراقَ والحجاز والشام ومصرَ واليمن، وسمع علماً كثيراً.

وكان ثقة سيِّداً زاهداً عابداً ورِعاً شُجاعاً جَوَاداً إماماً حجَّة كثيرَ الحديث. وكان يَتَّجِر ويُنفق على الفقراء والمجاورين بالحَرَمين وغيرِهم، وأقام طولَ عُمره يحجُّ سنةً ويغزو سنة.

وكان أبوه تركيّاً مولًى لرجل تاجرٍ من بني حَنْظَلة، وهم بطنٌ من هَمَذان، وكان عبدُ الله إذا قدم الكوفةَ يخضع لولده[1] ويعظِّمهم، وكانت أمُّه خُوارِزْميَّة، قال: نظر أبو حنيفةَ إليَّ وإلى أبي فقال: أدَّت أُمُّ عبد الله الأمانة. وكان أشبهَ الناس بأبيه.

سئل عن أوَّل أمره فقال: كنت يوماً في بستان وأنا شابٌّ مع جماعة من أترابي، فأكلنا وشربنا، وكنت مولَعاً بضرب العود، فأخذت العودَ في الليل لأضربَ به، فنطق العودُ وقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] فضربت الأرضَ بالعود فكسرته، وصرفتُ ما كان عندي من الأمور التي تَشغلني عن ذِكر الله وعن الله تعالى، وجاء التوفيقُ من الله.

وكانت دارُه بمَرْوَ كبيرة، وكان صحنُها مقدارَ خمسين ذراعاً في مثلها، وكان يأوي إليها أربابُ المروءات والحوائجِ وطلَّابُ العلم، وما دخل حمَّاماً قطّ، ثم قدم الكوفةَ فنزل داراً صغيرة، فكان لا يأتيه أحد؛ لأنَّهم لم يكونوا يعرفونه، فكان يقول: ما العيشُ إلَّا ها هنا. وكان لا يجالس إلَّا كتبَه، فيقال له: ألا تستوحش؟! فيقول: كيف أستوحشُ وأنا أجالس اللهَ تعالى والملائكةَ والأنبياء والخلفاءَ والعلماء والأولياءَ والشُّهداء وغيرَهم؟ أفتراني أدع مجالسةَ هؤلاء وأجالسكم؟!

وقال ابن مَعين: كان ابنُ المبارك من الربَّانيين في العلم، الموصوفين بالحفظ، المذكورين بالزُّهد، قدم بغدادَ غير مرة، وأثنى عليه علماءُ الشرق والغرب، كأحمد بن

(١) أي: لولد ذلك التاجر. انظر تاريخ بغداد ١١/ ٣٨٩.

حنبل وسفيانَ الثوريِّ والفضيلِ بن عياض وبشرٍ الحافي، وربما فضَّلوه على الثوري، وكان سفيان الثوريُّ يقول: أَشتهي أن أكون مثل ابن المباركِ سنة، لا واللهِ ما أقدر ولا ثلاثةَ أيام، ابنُ المبارك أعلمُ أهل الشرِق والغرب.

وقال سفيان بن عُيَينة: نظرت في أمر الصحابةِ وفي أمر ابنِ المبارك، فما رأيتُ لهم عليه فضلاً إلَّا صُحْبَتَهم لرسول اللهِ ﷺ والغزوَ معه.

وقال ابن مَعين: ابن المبارك في كلِّ فنٍّ أمير المؤمنين، في الحديث وغيرِه.

وقال إسماعيل بن عيَّاش: ما على وجه الأرضِ مثلُ عبد الله بن المبارك، ولا أعلم خصلةً من خصال الخير إلَّا وقد جعلها اللهُ فيه، ولقد حدَّثني أصحابي أنَّهم صحبوه من مصرَ إلى مكةَ، فكان يطعمهم الخبيصَ[1] وهو صائمُ الدهر.

وقال أشعثُ بن شعبةَ المِصِّيصي: قدم هارونُ أميرُ المؤمنين الرَّقَّة، وقدم ابنُ المبارك، فانجفل الناسُ خلف ابن المبارك، وتقطَّعت النِّعال وارتفعت الغَبرة، وأشرفت أمُّ ولدٍ لهارونَ من قصر، فلمَّا رأت الناسَ قالت: ما هذا؟ قالوا: عالمٌ من أهل خراسانَ يقال له: عبدُ الله بن المبارك، فقالت: واللهِ هذا المُلك، لاملك هارونَ الذي لا يجمع الناسَ إلَّا بالشُّرَط والأعوان.

وكان عبدُ الله يقول: لولا خمسةٌ لما تاجرت: الفضيلُ بن عياض، وسفيان الثوريّ، وابن عُيينة، وابن عُلَيَّة، ومحمَّد بن السمَّاك.

وكان ينفق على الفقراء في كلِّ سنةٍ مئةَ ألفِ درهم.

وكان الثوريُّ وفُضيلٌ ومشيخةٌ جلوساً في الحرم، فطلع ابنُ المبارك، فقيل: هذا رجلُ أهل المشرق، فقال الفُضيل: وأهلِ المغرب وما بينهما جميعاً.

وقال ابن المبارك: استعرتُ قلماً بأرض الشام، فلمَّا قدمتُ مرو، نظرت فإذا هو في أقلامي، فرجعت إلى أرض الشَّام حتى رددتُه على صاحبه.

وقال الحسينُ بن الحسن: كنَّا جلوساً عند ابنِ المبارك، فجاءه سائل، فقال: يا غلام، أَعطِه درهماً، فأعطاه، فلما ولَّى السائل، قال له بعضُ أصحابنا: يا أبا عبدِ

(١) الخبيص: الحلواء المخبوصة من التمر والسمن. المعجم الوسيط (خبص).

الرحمن، هؤلاء السؤَّال يتغدَّون بالشِّواء والفالُوذج، كان يكفيه قطعة، فلمَ أمرتَ له بدرهم؟ فقال: يا غلام، ردَّه، قد كنتُ أظنُّ أنَّهم يجتزئون بالخلِّ والبقل، فأمَّا إذا كان غداؤهم الشِّواءَ والفالُوذَج، فلا بدَّ من عشرة دراهم، يا غلام، ادفع له عشرةَ دراهم.

وقال الحاكمُ أبو عبد الله: سافر ابنُ المبارك فأطال السفر، فنزل على صاحبٍ له، فقال له: قد طالت عليَّ العُزْبة، فاشترِ لي جاريةً من صفتها كذا وكذا، قال: فاشتريتها له، ودفعتها إلى أهلي فأصلحوها، وحملتها إليه، فأقامت عنده تلك الليلة، ثم ردَّها عليَّ وقال: بِعها، وسألها أهلي فقالت: واللهِ ما وضع يده عليّ. قال: فقلت له: طلبتَ الجاريةَ فاشتريتُها وعرضتها عليك، فرضيتَها، وأمرتُ أمَّ بناتي فهيَّأتْها، ولم تضع يدَك عليها؟ قال: إنني محتاجٌ إليها، ولمَّا خلوت بها ذكرت إخواني، فتذمَّمت أن أنالَ شهوة لا ينالونها، وليس في يدي ما يَسعهم، أَخرجها فبعها. وفي معناه يقول الشاعر: [من الطويل]

وتركي مواساةَ الأخِلَّاءِ بالذي ... تنال يدي ظلمٌ لهمْ وعقوقُ
وإنِّي لأستحيي من الناس أن أُرى ... بحالِ اتِّساع والصديقُ مُضيق[1]

وقال أبو نُعيم الأصبهاني: كان ابنُ المبارك يَتَّجِر ويَقدَم كلَّ سنةٍ مكةَ، فيبعث بالصُّرر إلى أربابها، كفُضَيل بن عياض، وابن عُيينة، وابن عُلَيَّة، وغيرِهم. فقدم سنةً مكةَ فوجد ابنَ عُلَيَّة قد ولي الصَّدقات لهارون، فبعث بالصُّرر إلى أربابها ولم يبعث إلى ابن عُلَيَّة بشيء، وكان يعطيه في كلِّ سنةٍ خمسَ مئة درهم، فركب ابن عُلَية إليه فسلَّم عليه، فلم يرفعْ به رأساً ولم يكلِّمه، فكتب إليه: أَسعدك اللهُ بطاعته، وتولَّاك بحفظه، وحاطك بحياطته، قد كنتُ منتظرَ البرِّ والصِّلة منك لأتبرَّكَ بها، وجئتك مسلِّماً فلم تكلِّمني، فأيُّ شيءٍ بدا مني؟ فعرِّفني حتى أعتذرَ منه. فلمَّا قرأها ابنُ المبارك قال: يأبى هذا الرَّجل إلا أن أَقْشِرَ[2] له العصا، وكتب إليه: [من السريع]

ياجاعلَ العلم له بازياً ... يصيد أموالَ المساكينِ

(١) المنتظم ٩/ ٦٢.

(٢) في (خ): يا هذا الرجل الآن اقشر، وهو تحريف، والمثبت هو الصواب، انظر ميزان الاعتدال ١/ ٢١٩، وتهذيب التهذيب ١/ ١٤١.

احتلتَ للدُّنيا ولذَّاتها ... بحيلةٍ تذهب بالدِّين
فصرتَ مجنوناً بها بعدما ... كنت دواءً للمجانين
أين رواياتُك في سَرْدها ... عن ابن عونٍ وابن سيرين
أين أحاديثُك والقول في ... لزوم أبوابِ السَّلاطين
إنْ قلتَ أُكرهت فما هوْ كذا ... زلَّ حمارُ العلم في الطِّين[1]

فلمَّا قرأ الأبياتَ بكى، ودخل على هارونَ فاستعفاه، فقال: لعلك التقيتَ ذاك المجنونَ المَرْوَزيّ، فقال له: اِرحم شيبتي، فأقاله، فبعث إليه ابنُ المبارك برسمه.

وقال عليُّ بن الحسن بن شَقيق: كان ابنُ المبارك إذا جاء العامُ الذي يحجُّ فيه، اجتمع إليه إخوانهُ من أهل مرو، فيقولون: الصُّحبةَ، فيقول: هاتوا نفقاتِكم، فيأخذها فيجعلها في صُندوق ويُقفل عليه، ثم يكتري لهم من ماله ويجهِّزهم بكلِّ ما يحتاجون إليه من مروَ إلى مكَّة [و] قال لهم: ما الذي طلب منكم عيالُكم من المتاع؟ فيقولون: كذا وكذا، فيشتري لهم من متاع مكَّة ما سمَّوه، فإذا قدم المدينةَ سألهم، فيذكرون له المتاع، فيشتريه، فإذا عادوا إلى بغداد، سألهم كذلك، فإذا قدموا مروَ وضع لهم طعاماً عظيماً، وأَحضرهم فأكلوا، وفتح الصُّندوق وأَخرج تلك الصُّررَ وعلى كلِّ صرَّةٍ اسمُ صاحبها، وأخرج لهم هدايا مكةَ والمدينةِ وبغداد، فيدفع الجميعَ إليهم، ويبيِّض أبوابَهم[2].

وقال الحاكمُ أبو عبد الله: كان عبدُ الله بن المبارك يحجُّ ومعه أحمال وصناديقُ وخدم كثير، فنزلوا منزلاً عن مرو، وكان مع بعض خدمه قَبَجةٌ[3]، فماتت، فألقاها الخادمُ على الكُناسة، وشرعوا في الرحيل وتجهيزِ الأثقال، وابنُ المبارك واقفٌ على دابَّة له ينتظر المسير، فنظر إلى جويريةٍ تُخرِج رأسَها من باب صغيرٍ وترجع لعلها ترى فرصةً لكي لا يراها أحد، فتغافل ابنُ المبارك عنها، فخرجت في إزارٍ ليس عليها

(١) صفة الصفوة ٤/ ١٤٠ ، والسير ٨/ ٤١١-٤١٢ ، وتاريخ الإسلام ٤/ ٨٩٧ ، وهي في روضة العقلاء لابن حبان ص٣٦-٣٧ باختلاف في بعض الأبيات.

(٢) في تاريخ بغداد ١١/ ٣٩٥: فإذا وصل إلى مرو جصَّص أبوابهم ودورهم.

(٣) القبجة: الحَجَل، تقع على الذكر والأنثى. القاموس (قبج)، وانظر الخبر في المنتظم ٩/ ٦٢ـ٦٣.

قميص ولا مِقْنَعة، فحملت القَبجَة ودخلت الدارَ تعدو، فقال عبدُ الله لغلامه: اِذهب إلى هذا البابِ واسأل عن الجارية ولِمَ أخذت القبجة، فجاء الغلامُ فطرق الباب، فخرجت الجارية، فسألها، فسكتت، فألحَّ عليها، وجاء ابنُ المبارك فسألها، فقالت: أنا وأختٌ لي في هذه الدارِ ليس في منزلنا إلَّا إزارٌ واحد إذا لبستُ بَقِيَتْ أختي عُريانة، فهو كسوتُنا وفراشنا، فقال: ليس لكم قيِّم؟ قالت: لا والله، وكان أبونا رجلاً موسِراً، فظُلمنا وغُصبنا على أموالنا، وبقينا بحالٍ تحلُّ لنا الميتة، فرقَّ لها عبدُ الله، وقال لغلامه: اِلحق فردَّ الأثقال، وقال لوكيله: ما معك من النَّفقة؟ قال: ألفُ دينار؟ قال: اعزلْ منها عشرين ديناراً تكفينا إلى مروَ وصُبَّ الباقيَ في إزار هذه الجارية، ففعل الغلام، وعاد إلى مروَ، فقيل له: ما الذي ردَّك؟ فقال: استقبلَنا ما هو أفضلُ من الحجّ.

وقد رُويت هذه الحكايةُ على وجه آخرَ، فقال عليُّ بن الحسن بن شَقيق: توجَّه ابن المبارك من مَرْوَ إلى الكوفة للحجّ، فرجع بعد ذلك عن قُرب، فسألتُه عن سبب رجوعِه، فقال: خرجتُ إلى موقف الكوفةِ وفي كمِّي خمسُ مئة دينار لأشتريَ بها جِمالاً، فرأيت امرأةً تسارق الناسَ من بعيد، وتتقدَّم إلى مزبلةٍ هناك عليها بطَّة ميِّتة تريد أن تأخذَها، فإذا نظر إليها أحدٌ أمسكت، فغفل الناس عنها، فأخَذتها وأنا أُسارقها بالنظر، فتبعتُها وقلت لها: أتأكلين الميتة؟ فقالت: يا عبدَ الله، لا تسألْني[1].

فوقع كلامُها في قلبي، قال: فألححت عليها، فقالت: قد أحوجتَني إلى هتك سِتري وكشف سرِّي، أنا امرأةٌ شريفة، مات زوجي وترك أربعَ بناتٍ يتامى وليس يسترنا إلَّا الحيطان، ولنا أربعةُ أيام ما أكلنا شيئاً، فخرجت أتسبَّب لهنَّ في شيءٍ فلم أجد غيرَ هذه البطَّة، فأخذتها لأُصلحَها وأحملَها إلى بناتي فيأكلْنها. قال: فقلتُ: ويحَكَ يا ابن المبارك، وأين أنت عن هذه وبناتِها، فقلت: افتحي حِجْرَك، ففتحته، فصببتُ الدنانير فيه، ونزع اللهُ من قلبي شهوةَ الحجِّ في تلك السَّنة، وعدتُ إلى بلدي وأقمت حتى عاد الناسُ من الحجّ، فخرجت أتلقَّاهم، فجعلت كلَّ مَن أقول له: قَبِلَ اللهُ حجَّك، يقول: وأنت قبل الله حجَّك، وأكثر عليَّ الناس، فبتُّ متفكِّراً، فرأيت رسولَ الله ﷺ في المنام

(١) في (خ): ألا تسألني. ولايستقيم بها الكلام، وانظر الخبر في ترتيب المدارك ١/ ٣٠٤.

فقال لي: يا ابنَ المبارك، لا تعجبْ، فإنَّك أغثت ملهوفةً من ولدي، فسألتُ اللهَ أن يخلق على صورتك مَلَكاً يحجُّ عنك إلى يوم القيامة، فهو يحجُّ عنك، فإن شئتَ أن تحجَّ وإن شئتَ لا تحجّ.

وقال عَبْدَةُ[١] بن سليمان: كنا في سريةٍ مع ابن المباركِ في بلاد الرُّوم، فصادفنا العدوّ، فلمَّا التقى الصفَّان، خرج رجلٌ من العدوِّ فدعا إلى البِراز، فخرج إليه رجل ملثَّم، فطارده ساعة، فطعنه فقتله، ثم خرج آخَرُ من العدوّ، فطعنه فقتله، ثم خرج آخر وآخرُ وهو يقتلهم، فقتل أربعة، فازدحم عليه الناسُ وهو ملثَّم بكمِّه، فأخذتُ بطرف كُمِّه فمددته، فإذا هو عبدُ الله بن المبارك، قال: فقال: يا أبا عَمرو، وأنت ممَّن يُشَنِّع علينا؟

وقال ابنُ المبارك: حضرت بعضَ الغزوات، فبارزني عِلجٌ وطال القتالُ بيننا، وحضر وقتُ الصلاة، فقلت له: أريد أن أصلِّي، فقال: صلِّ فأنت آمن، فصلَّيت، فجاء وقتُ صلاته، فقال: أريد أن أصلِّي فأمِّني، فقلت: أنت آمن[٢]، فأخذ في صلاته، وحانت لي منه فرصة، فرفعت السيفَ لأضربَه، فسمعت قائلاً من الهواءِ يقول: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١] ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء: ٣٤] فوقع السيفُ من يدي، فلمَّا فرغ من صلاته قال: رأيتك رفعتَ السيف، فما أردتَ أن تفعلَ بعد الأمان؟ فقلت: أردت أن أقتلَك فسمعتُ قائلاً من الهواء يقول: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ فبكى وقال: نِعمَ الربُّ ربٌّ يعاتب وليَّه في عدوِّه، ثم أَسلم وعاد معي إلى العسكر، فاستُشهد في بعض المغازي.

وقال: خرجنا في بعض الغزواتِ ومعنا فتًى كثيرُ الصلاة والصيام، ففقدتُهُ مدَّة، ثم حاصرْنا حصناً، فبرز عِلجٌ من الزِّحام فقتل مسلماً، ثم برز إليه آخَرُ فقتله، حتى قتل عشرةً من المسلمين، فبرزتُ إليه، فتأمَّلته فإذا به ذلك الفتى، فقلت: فلان؟ قال: نعم،

---

(١) في (خ): عبد الله، والمثبت من تاريخ بغداد ١١/ ٤٠٦، والمنتظم ٩/ ٥٩، والسير ٨/ ٣٩٤، وتاريخ الإسلام ٤/ ٨٨٩ . وعبدة بن سليمان من رجال التهذيب، روى له أبو داود، وهو صاحب ابن المبارك، انظر تهذيب الكمال (٤٢٠٢).

(٢) في (خ): أمين، في الموضعين !

قلتُ: ويحك ما هذا؟ قال: بُليت بعشق امرأةٍ من الروم، ففعلَتْ فيَّ ما ترى، فقلت: ويحك عُدْ إلى الإسلام، فقال: بَعدَ ما وُلد لي أولادٌ منها، قلت: فالقرآنُ الذي كنت تقرؤه؟ قال: نسيتُهُ كلَّه غيرَ آية واحدة، وهي قولُه تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢] ثم انحرف، فطعنتُهُ فقتلته.

وقال: جاء أوانُ الحجِّ[1]، فقلت: أُجاهد في هذا العام، وقَوِيَ عزمي على الجهاد، فنمتُ، فرأيتُ في المنامِ قائلاً يقول: كم تُلِحّ؟ إن غزوتَ العامَ أُسرت، وإن أُسرتَ تنصَّرت.

وقال محمَّد بن عيسى: كان ابنُ المبارك كثيرَ الاختلاف إلى طَرَسُوس، وكان ينزل الرقَّة في خان، وكان يختلف إليه شابٌّ يقوم بحوائجه ويسمع عليه الحديث، فقدم الرقَّة مرَّةً فلم يره، فسأل عنه، فقيل: هو محبوسٌ بدَين، قال: وكم دَينُه؟ قالوا: عشرة آلافِ درهم، فدعا بصاحب الدَّين ليلاً ودفع إليه المال، وسأله ألَّا يُعلم الفتى.

وسافر ابنُ المبارك، وأَخرج الرجلُ الفتى مَن الحبس ولم يعلم مَن قضى دينه، وقيل للفتى: كان ابنُ المبارك هاهنا والبارحةَ سافر، فخرج خلفه فلحقه على مراحل، فقال له: يافتى، ماالذي أَبطأ بك؟ فقال: كنتُ محبوساً بدين فجاء رجلٌ فقضاه عنِّي، قال: مَن الرَّجل؟ قال: لا أعلم، فقال ابنُ المبارك: الحمد الله. ولم يَعلم الفتى أنَّ ابن المبارك قضاه، ولم يُخبر صاحبُ الدَّين أحداً بشيءٍ حتى مات ابنُ المبارك.

وكان إذا أقام ببغدادَ يتصدَّق كلَّ يوم بدينار.

وقال القاسم بن محمد[2]: قلت في نفسي: بأيِّ شيءٍ فُضِّل هذا الرجلُ علينا حتى اشتهر بين الناس هذه الشُّهرة؟! إنْ كنا لَنصلِّي كما يصلي، ونصوم كما يصوم، ونحجُّ كما يحجّ، ونغزو كما يغزو. قال: فدخلتُ عليه في بعض الليالي وإذا به في الظُّلمة، فخرجت وأتيتُه بسراج، وإذا وجهُه ولحيتهُ قد امتلآ من البكاء والدُّموع، فلعله ذكر ظُلمةَ القبر، فقلت في نفسي: بهذه الخشيةِ فضِّل علينا.

---

(١) في نسخة في هامش (خ): حجي.

(٢) في (خ): محمد بن القاسم، والمثبت من صفة الصفوة ٤/ ١٤٥، وهو الصواب إن شاء الله، فقد ذكره المزي في تهذيب الكمال (٣٥٠٨) في الرواة عن ابن المبارك، وأنه مروزي.

ذكر نُبذةٍ من كلامه:

كان يقول: خرج أهل الدُّنيا ولم يذوقوا طيِّبَ ما فيها، قيل: وما هو؟ قال: معرفةُ اللهِ تعالى.

وكان يقول: لَأن أَرُدَّ درهماً من شُبهةٍ أحبُّ إليَّ من أن أتصدَّقَ بمئة ألفِ درهم.

وقيل له: ما التواضع؟ قال: التكبُّر على الأغنياء. أخذ هذا المعنى شاعرٌ[١] فنظمه فقال: [من البسيط]

لم ألقَ مُستَكبِراً إلَّا تحوَّل لي ... عند اللقاءِ له الكِبرُ الذي فيهِ
ولا حَلَا لي من الدُّنيا ولذَّتِها ... إلَّا مقابلتي للتِّيه بالتِّيه

وسُئل: مَن الناس؟ فقال: العلماء، قيل: فمَن الملوك؟ قال: الزهَّاد، قيل: فمن السَّفِلة؟ قال: الذين يأكلون الدُّنيا بالدِّين.

وعطس رجلٌ عنده فلم يقل: الحمدُ الله، فقال له: إذا عطس الرجلُ أيشٍ يقول؟ فقال: الحمدُ لله، فقال له: يرحمكَ الله، فعجب الناسُ من لُطفه.

وقال له رجلٌ: كم تكتب؟! فقال: لعل الكلمةَ التي أنتفعُ بها وفيها نجاتي لم أسمعْها بعد.

وقال محمَّد بن إبراهيمَ البَهراني[٢]: أملى عليَّ ابنُ المبارك وهو بطَرَسوسَ كتاباً إلى الفُضيل بن عياض وهو بمكَّةَ فيه يقول: [من الكامل]

يا عابدَ الحَرَمَين لو أبصرْتَنا ... لَعلمتَ أنَّك في العبادة تلعبُ
مَن كان يَخضِب خدَّه بدموعه ... فنحورُنا بدمائنا تتخضَّب
أو كان يُتعِبُ خيلَه في باطلٍ ... فخيولُنا يوم الكَريهةِ[٣] تتعب
ريحُ العَبير لكمْ ونحن عَبيرُنا ... رَهَجُ[٤] السَّنابك والغبارُ الأطيب

(١) هو شهاب الدين سعد بن محمَّد الصيفي التميمي المعروف بـ: حيص بيص، والبيتان في ديوانه ص٤١٧.

(٢) في (خ): الزواني، وهو تحريف، والمثبت من طبقات الشافعية الكبرى ١/ ٢٨٦، وانظر سير أعلام النبلاء ٨/ ٤١٢، وتاريخ الإسلام ٤/ ٨٩٥، والنجوم الزاهرة ٢/ ١٠٣.

(٣) في (خ): العريكة، والمثبت من طبقات الشافعية ١/ ٢٨٧.

(٤) في (خ) وهج، والمثبت من المصادر. والرهج: الغبار.

ولقد أتانا في مقال نبيِّنا أخبارُ قول صادق لا يكْذب
لا يستوي وغبارُ خيلِ الله في أنف امرئٍ ودخانُ نارٍ تَلْهَب[1]

قال: فأتيتُ بالكتاب إلى الفُضيل، فقرأه وبكى، وقال: صدق أبو عبد الرَّحمنِ ونصح.

ولابن المبارك أشعارٌ كثيرة في الزُّهد والحِلم وغيرِ ذلك.

وقد مدحه عمارُ بن الحسن[2] فقال: [من الطويل]

إذا سار عبدُ الله من مَرْوَ ليلةً فقد سار عنها نورُها وجمالُها
إذا ذُكر الأخيارُ في كلِّ بلدةٍ فهم أنجمٌ فيها وأنت هِلالُها

ذكر وفاته:

قال سعيد بن نعيم المَصِّيصي: خرج عبدُ الله بن المبارك من المصِّيصة في شعبانَ سنةَ إحدى وثمانين ومئة، فشيَّعه أبو إسحاقَ الفَزاريُّ ومَخلدُ بن الحسين وعلي بن بكَّار مشاةً إلى باب الشَّام يَبْكُون، ثم قدم علينا إسماعيلُ الجعفريُّ الكوفي، فقال لأبي إسحاق: شهدتُ عبدَ الله بن المبارك قد خرج من سفينةٍ بهِيت، فمات بها ليلةَ الثُّلاثاء لثلاثَ عشرةَ مَضَين من شهر رمضان، فبكى أبو إسحاقَ وعزَّاه الناس.

وقيل: مرض في السَّفينة ومات، وأخفى أصحابُه موتَه ليحملوه إلى مَرْوَ، فلمَّا كان نصفُ الليل، رأى أهلُ هِيتَ عموداً من نورٍ قد نزل من السَّماء على السفينة؛ فثار أهلُ هيت وقالوا: لا يُخرَجُ هذا الرجلُ الصالح من أرضنا، ونحن أحقُّ به، لأنَّ الله ساقه إلينا، فأَخرجوه ودفنوه بهِيت، وقبرُه ظاهرٌ يُزار.

ولمَّا احتُضِر قال لنصرٍ غلامِه: ضعْ رأسي على التُّراب، فبكى، فقال: ما يُبكيك؟ فقال: ذكرتُ ما كنتَ فيه من النَّعيم، وها أنت تموت غريباً فقيراً، فقال: اسكُت، فإني سألت اللهَ أن يُحيِيَني حياةَ الأغنياءِ السُّعداء ويميتَني موتَةَ الشهداء، ثم فتح عينيه وضحك وقال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٦١].

---

(١) إشارة إلى قوله ﷺ: «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في منخري رجل مسلم» أخرجه أحمد (٧٤٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (خ): الحسين، والمثبت من تاريخ بغداد ١١/ ٤٠٢، وتهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢٨٥، والسير ٨/ ٣٩٠، والطبقات السنية ٤/ ١٩٩.

ومات وعُمره ثلاثٌ وستُّون سنة. وقيل: إنَّه مات سنةَ ستٍّ وسبعين ومئة.

وجاء البريدُ إلى الرَّشيد بوفاته، فقال: مات سيِّد العلماءِ والزهَّاد، ما رأيته قطّ، ولكن أَرعى له بيتاً قاله فينا: [من البسيط]

لـولا الـخـلافـةُ مـا قـامـت لـنـا سُـبُـلٌ وكـان أضـعـفُـنـا نَـهْـبـاً لأَقـوانـا[1]

يا غلام، اِئذن للناس يعزُّوني في أبي عبدِ الرَّحمن.

وكان ابنُ المبارك قد قدم بغداد، فأتاه هارونُ الرشيد للزيارة، فقعد على باب البيتِ الذي هو فيه فلم يفتحْ له الباب، وقال: أنا عنه في غنىً، فقام هارونُ وانصرف، وبعث إليه يحيى بن خالد يستأذنه في زيارته، فقال له: يا يحيى، أَمَا يستحيي مثلُك يكون رسولَ مثله؟! ولم يأذنْ له.

وقال أبو حاتِم الفِرَبْري: رأيت ابنَ المباركِ في منامي واقفاً على باب الجنَّة وبيده مفتاح، فقلت: ما هذا؟ قال: مفتاحُ باب الجنَّة، دفعه إليَّ رسولُ الله ﷺ حتى أزورَ الربَّ سبحانه وقال: كن أميني في السَّماء كما كنتَ أميني في الأرض[2].

وقال صخرُ بن راشد: رأيت ابنَ المبارك في المنام، فقلت: ما فعل اللهُ بك؟ فقال: غفر لي مغفرةً أحاطت بكلِّ ذنب.

وقال صخرٌ[3] أيضاً: رأيت النبيَّ ﷺ في المنام، فقلت: يا رسولَ الله، ما فعل اللهُ بابن المبارك؟ فقال: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [النساء: ٦٩] الآية.

وكان ابنُ المبارك قد طاف الدُّنيا شرقاً وغرباً، وبُعداً وقُرباً، وأَسند عن كبار الأئمَّة، منهم: هشامُ بن عروةَ وسعيدُ بن عبد العزيز وغيرُهما، وروى عنه جمٌّ غفير.

وقال فَضَالة النَّسوي: كنَّا أصحابَ الحديث إذا اختلفنا في مسألةٍ أو في حديثٍ قلنا: مرُّوا بنا إلى الطَّبيب، يعني ابنَ المبارك، وهو أعلمُ من الثوريِّ وأفضل.

---

(١) البيت من قصيدة طويلة، انظر حلية الأولياء ٨/ ١٦٤، وبهجة المجالس ١/ ٢٣٢، والسير ٨/ ٤١٤، وتاريخ الإسلام ٤/ ٨٩٦، وطبقات الشافعية الكبرى ١/ ٢٨٧.

(٢) في تاريخ الإسلام ٤/ ٨٩٩، والسير ٨/ ٤١٩: دفعه إلي محمد ﷺ وقال: حتى أزور الرب تعالى فكن أميني...

(٣) في تاريخ بغداد ١١/ ٤٠٩: الفريابي، بدل صخر.

وقال سويد بنُ سعيد: رأيت ابنَ المبارك أتى زمزم، فأخذ شَربةً من مائها وقال: اللهمَّ إن نبيَّك ﷺ قال: «ماءُ زمزمَ لما شُرب له»[١] وإنّي قد شربتُها لعَطَشِ يومِ القيامة.

واتَّفقوا على فضل ابنِ المبارك، وأَمانته، وصدقِه، وثقته، وزُهده، وجهادِه، واجتهاده، وحِكمته، وكرمِه، وسَخائه، وفصاحته، ونظمه، ونثره، وبلاغته، وأنَّه من أكابر المسلمين والأئمَّة المخلصين. وله التصانيفُ الكثيرة في فنون العلوم، منها كتاب «الزُّهد» وكتاب «الجهاد» وغيرُ ذلك، رحمه اللهُ تعالى.

عُفَيْرَة[٢] العابدة البصريَّة

كانت من العابدات الخائفات. قال محمَّد بن عبيد: دخلنا على عُفيرةَ بالبصرة، فسألناها الدُّعاء، فقالت: لو خَرِس الخاطئون ما تكلَّمت عجوزكم، ولكن المُحْسِن أمر المسيءَ بالدُّعاء، جعل اللهُ قِراكم الجنة، والموت منِّي ومنكم على بال.

وكان لها ابنُ أخٍ غائب، فبُشِّرت بقدومه، فبكت وقالت: أَذكرني قدومُه القدومَ على الله تعالى، فقيل لها: فهذا يومُ سرور، فقالت: ما أجد للسُّرور في قلبي موضعاً مع ذِكر الآخرة إذا قدمنا على الله تعالى.

وكانت لا تنام الليلَ ولا تهدأ، وتقول: قَطَعَ ذِكرُ العَرْضِ على الله أوصالَ الخائفين.

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٠٦٢)، وأحمد (١٤٨٤٩) من حديث جابر رضي الله عنه، والخبر في تاريخ بغداد ١١/ ٤٠٥.

(٢) في (خ): عفرة، والمثبت من المنتظم ٩/ ٥٦، وصفة الصفوة ٤/ ٣٣، والبداية والنهاية ١٣/ ٦٠٨ . وقد ذكراها في سنة ثمانين ومئة.